المقدمــــة

حاول الباحثون الغربيون تحديد سبب معين لاندلاع نار الحروب الصليبية القديمة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. فمنهم من زعم أن هذه الحروب قد جاءت نتيجة استيلاء الأتراك السلاجقة على بلاد الشام، وسيطرتهم على طريق حجّ الفرنج إلى القدس. ومنهم من زعم أن ما ظهر من ضعف دولة الروم - البيزنطيين - في معركة ملازكرد والتي انتصر فيها السلطان ألب أرسلان السلجوقي على امبراطور الروم أرمانوس سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م كان هـو السبـب في استثـارة الغـرب لتجـريـد الحملات الصليبية. وحاول آخرون ايجاد هذا السبب في وسط الغرب ذاته، فالفقر والجهل وسيطرة الكنيسة والانغلاق الفكري مقابل ما كان يعيشه العالم الإسلامي من تقدم فكري ورفاه اقتصادي وتطور اجتماعي قد استثار شهوة النهب والتدمير في وسط قيادات الغرب، ومارست الكنيسة دورها لتوجيه الجهود ضد المسلمين. وقد لا تكون هناك حاجة لدحض هذه المزاعم أو اقرار بعضها، ودحض بعضها الآخر. والحقيقة هي أن منطق التاريخ لا يقبل مثل هذا التجديد الزمني والمكاني للأحداث، فتيار التاريخ المتدفق، ونسيجه المتصل يرفض الانقطاع ويمتنع عن التجزئة. فلقد كانت الأماكن المقدسة تحت حكم العرب المسلمين منذ قرون. وحاصر العرب المسلمون عاصمة الروم مرات كثيرة. ولم تكن قضية حفنة من الحجاج - حتى لو وجدت مثل هذه القضية - جديرة بتجريد مثل هذه الحملات الضخمة. ولو كان الأمر كذلك أيضاً، لما كانت للفرنج حاجة لإقامة أماراتهم ومملكتهم في بلاد الشام. ولما أوغلوا في عمق بلاد الشام فحاولوا الوصول إلى بغداد أو الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، ولما حاولوا احتلال مصر ودمشق.

يظهر استعراض النسيج التاريخي المتصل أن أرض الأندلس، وجزائر البحر الأبيض

المتوسط، كانت هي المهد المبكر للحروب الصليبية. وقد عملت الكنيسة ـ روما ـ باستمرار على توجيه الجهد وحشد القوى ضد المسلمين. غير أن انتصارات المسلمين على الجبهات كافة، دفعت قوى الفرنج الصليبيين لمهادنة المسلمين أحياناً، أو اتخاذ سياسة دفاعية في مواجهتهم في أحيان أخرى. حتى إذا ما أحرز الفرنج انتصارهم الكبير على المسلمين فانتزعوا منهم طليطلة سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م. وجدت الكنيسة أن الفرصة قد باتت مناسبة أو مؤاتية للانتقال إلى الهجوم الشامل، وضرب المسلمين في عقر دارهم بالاستيلاء على بلاد الشام. ووقف البابا ايربان الثاني في مجمع كليرمونت ـ بفرنسا ـ سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م. فأعلن بندائه الشهير بداية الحروب الصليبية عندما قال:

« فلينهض الغرب لنجدة إخوانه المسيحيين في الشرق ».

وما هي إلا أربع سنوات حتى وصلت طلائع الفرنج الصليبيين إلى بلاد الشام.

هكذا لم يكن إعلان البابا للحرب الصليبية إلا ثمرة مخاض طويل، وإلا نتيجة جهود مستمرة عبر أزمنة متتالية، بدأت بمسرح الصراع الرئيسي على أرض أندلس المسلمين، وامتدت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط، وانتهت على أرض بلاد الشام، حيث القاعدة الأساسية لانطلاق جيوش الفتح العربي ـ الإسلامي.

اصطدمت جحافل الفرنج الصليبيين بجند المسلمين في كل مكان، وهبت جيوش المدن الإسلامية لمقاومة قوات الغزو، وظهرت منذ البداية محاولات لتنسيق التعاون بين جيوش المدن الإسلامية، واصطدمت هذه المحاولات بعقبات كثيرة حتى استطاع الزنكيون الانطلاق من الموصل إلى حلب ومنها إلى دمشق ثم مصر، فأمكن تشكيل جبهة اسلامية متماسكة أوقفت مد الفرنج، وانتزعت منهم بعض إماراتهم (الرهاء). مما دفع الفرنج لتجريد حملة صليبية ثانية، وجاء الايوبيون في أعقاب الزنكيين الذين مهدوا لهم سبيل الحكم. فتابعوا حمل راية الجهاد في سبيل الله، ووصلوا أوج قوتهم في معركة حطين وإعادة فتح القدس. وتبع ذلك تحول حاسم. حيث ظهر وجود الفرنج في بلاد الشام بأنه وجود ضعيف، مما دفع الفرنج لتجريد حملة صليبية ثالثة، وجاء بعد

ذلك المماليك فتابعوا السير على درب الجهاد وقد اتضحت معالمه وتحددت أهدافه. فقادوا جموع المسلمين لخوض أكبر معركة ضد المغول ـ التتار (عين جالوت) وتبع انتصار المسلمين هجوم عاصف على بقايا الفرنج. ولم تنجح الحملات المتتالية إلا في إطالة أمد الحرب وإلا في التعرض للمزيد من الخسائر على طرفي جبهات الصراع المسلح. إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج من بلاد الشام. إلا أن ذلك لم يضع نهاية للصراع. فقد شرع الأتراك العثمانيون في ممارسة دورهم برفع راية الجهاد، وانطلقوا من شمال بلاد الشام وآسيا الصغرى، فأمكن لهم نقل ثقل الصراع المسلح إلى أوروبا. وجابهوا هناك الحملات الصليبية المتتالية ودمروها. ولم يكن فتح القسطنطينية (اسلام بول) إلا ثمرة من ثمار تحول مسرح الصراع المسلح من بلاد الشام إلى شرق أوروبا.

هكذا، اشتركت الشعوب الإسلامية من عرب وبربر، كرد وترك، ديلم وفرس، وسواهم من أمم الأرض في احباط الحملات الصليبية ودحرها. وقد اجتهد الباحثون والمؤرخون في تصنيف هذه الحملات ـ في إطارها الزمني ـ فكان منها التصنيف التالي:

١ ـ **الحملة الصليبية الأولى:** سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. وانتهت باحتلال انطاكية والقدس ومدن الساحل في بلاد الشام.

٢ ـ **الحملة الصليبية الثانية:** ٥٤٢ ـ ٥٤٤ هـ (١١٤٧ ـ ١١٤٩ م) وقد جاءت بعد إعادة فتح الرهاء وطرد الفرنج منها على أيدي الزنكيين. وقد حاولت هذه الحملة الاستيلاء على دمشق.

٣ ـ **الحملة الصليبية الثالثة:** ٥٨٥ ـ ٥٨٨ هـ (١١٨٩ ـ ١١٩٢ م) وقد جاءت بعد انتصار المسلمين في حطين وإعادة فتح القدس. ولم تحقق نتائج هامة.

٤ ـ **الحملة الصليبية الرابعة:** ٥٩٩ ـ ٦٠١ هـ (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م) اتجهت إلى القسطنطينية واستولت عليها ودمرتها، واكتفت بهذا الإنجاز

٥ ـ **الحملة الصليبية الخامسة:** ٦١٦ ـ ٦١٨ هـ (١٢١٩ ـ ١٢٢١ م) وقد حاولت الإستيلاء على مصر لعزلها عن المشرق الإسلامي، وانتهت الحملة إلى الفشل.

٦ - **الحملة الصليبية السادسة:** ٦٢٦ - ٦٢٧ هـ (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م). أعادت القدس إلى حكم الفرنج، مع شريط أرضي يربطها بالساحل - حيث إمارات الفرنج.

٧ - **الحملة الصليبية السابعة:** ٦٤٦ - ٦٥٢ هـ (١٢٤٨ - ١٢٥٤ م) حاولت للمرة الثانية احتلال مصر - وفشلت في المنصورة.

٨ - **الحملة الصليبية الثامنة:** ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) انتهت بالفشل أمام تؤنس.

٩ - **الحملة الصليبية التاسعة:** ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) هاجمت الاسكندرية في مصر ونهبتها ودمرتها وعادت إلى قبرص.

١٠ - **الحملة الصليبية العاشرة:** ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ م) أحبطها الأتراك العثمانيون في نيقوبوليس.

١١ - **الحملة الصليبية الحادية عشرة:** ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) أحبطها الأتراك العثمانيون في فارنا.

لم تتوقف الحملات الصليبية بفتح الأتراك المسلمين للقسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م. ولا باستيلاء الفرنج الصليبيين على غرناطة سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩١ م. وانما استمرت بعد ذلك في إطار حملات منظمة ضد أقطار المغرب العربي الإسلامي (المغرب والجزائر وتؤنس وبرقة) وهي الحملات التي قادها الاسبانيون والبرتغاليون. غير أن هذه الحملات لم توضع في إطار الحملات الصليبية. وكذلك الأمر بالنسبة للحملات الصليبية التي جرت تحت رايات (الاستعمار الغربي) والتي تركزت على أقطار العالم العربي - الإسلامي خاصة وأقطار العالم الإسلامي بصورة عامة. مما حمل الكثير من المؤرخين على تصنيف هذه الحملات تحت عنوان (الحملة الصليبية الثانية عشرة) وبذلك منحت الهجمة الإسرائيلية الجديدة التي أقامت الكيان الصهيوني على أرض فلسطين اسم (الحملة الصليبية الثالثة عشرة) باعتبار أن الصهيونية هي رأس الحربة في الحملة الصليبية الجديدة. بينما يطلق آخرون على الهجمة الصهيونية الحديثة عنوان (الحملة الصليبية العاشرة) لربطها مباشرة بالحملات التي وصلت إلى بلاد الشام مع تجاوز ما بين الحملات القديمة والهجمة الجديدة من حملات صليبية مختلفة.

لقد حظيت تجربة الحملات الصليبية القديمة باهتمام الباحثين في الأزمنة الحديثة. ـ في أقطار الغرب عامة ـ. وقد صدرت خلال النصف القرن الماضي ـ أي منذ إقامة الكيان الصهيوني على وجه التحديد ـ مجموعة ضخمة من المؤلفات والكتب والأبحاث، فهل جاء هذا الاهتمام المباغت بصورة تلقائية ـ عفوية ـ؟.
أم جاء في إطار خطة مبرمجة هدفها استثمار الدروس المستخلصة من تلك التجربة؟

للاجابة على هذه التساؤلات، وأمثالها، قد يكون من الضروري مقارنة الممارسات الإسرائيلية ـ الصهيونية ـ الحديثة، بما جرى على أرض فلسطين خلال الحملات الصليبية القديمة، وعندئذ يظهر التشابه المثير في سلوك هذه مع تلك وممارساتها. وعلى سبيل المثال لا الحصر: ممارسة الارهاب ضد العرب المسلمين خاصة، وتنظيم الطوائف الدينية المتطرفة، وتغذية ودعم المذاهب الطائفية في الوسط الإسلامي. ومحاولات عزل مصر عن العالم العربي ـ الإسلامي، ومحاولات الوصول إلى ما وراء نهر الأردن بحجة تأمين العمق الاستراتيجي. وتصعيد الهجوم على القوى المضادة للصليبية مع كل تعاظم في الوعي الإسلامي الخ... ومن المحتمل القول أن هذا التشابه هو من الأمور الطبيعية بسبب الوضع الخاص الذي تعيشه اسرائيل مع ذاك الذي عاشته الكيانات التي أقامها الفرنج في الحملات القديمة. فعندما تتشابه الظروف فانها تفرز ردود فعل سياسية واقتصادية واجتماعية متشابهة. غير أن ذلك لا يزيل اليقين في محاولات أصحاب المشروع الصهيوني الافادة من تجربة الحملات الصليبية القديمة، واستثمار الدروس المستخلصة منها، وتوظيفها لمصلحة الحملة الصليبية الجديدة.

تظهر من خلال ذلك أهمية العودة إلى التجربة التاريخية الذاتية، في مجال فن الحرب سواء على مستوى السياسة الاستراتيجية أو على مستوى إدارة الحرب والأعمال القتالية، بل وحتى على المستوى التعبوي ـ التكتيكي ـ. ولقد تطورت الأسلحة تطوراً مذهلاً. كما تطورت طرائق إدارة الحرب والعمليات بما يتناسب مع تطور الأسلحة، غير أن الأسس الثابتة بقيت محتفظة بأهميتها الكاملة.

لقد كان الصراع بين الفرنج الصليبيين من جهة والعرب المسلمين من جهة ثانية، مجالاً لحوار الارادات المتصارعة، قذف فيه الفرنج بكل ما توافر لهم من القوى، وقذف فيه المسلمون بما يعادل تلك القوى. وارتبطت نتيجة الصراع في النهاية، بالطرف الأكثر تصمياً والأكثر عناداً، فكسب المسلمون الجولة النهائية، وبرهنوا على أنهم الطرف الأقوى في الحوار، اعتماداً منهم على حقهم وعلى عدالة قضيتهم. وعرف الفرنج هذه الحقيقة، فاضطروا مرغمين على الانسحاب من حلبة الصراع - ولو إلى حين -. ولقد تطورت أساليب الحوار وتنوعت. ولعل هذا ما يمكن تعلمه من التجربة الذاتية، وهو الاعتماد على اسس الصراع الثابتة وتطوير العوامل المتحولة - أو غير الثابتة - بما يتناسب مع الظروف المحلية والدولية.

لقد جرى حوار الارادات المتصارعة بين المسلمين والفرنج في إطار سياسة استراتيجية هجومية - دفاعية. وأظهر المسلمون تفوقهم في الأساليب الهجومية، واعتمد الفرنج على الوسائل الدفاعية (الحصون والقلاع). فكان الحوار على مستوى الأعمال القتالية هو حوار بين الهجوم والدفاع. ولكن ذلك لا يعني أن المسلمين قد التزموا بالهجوم دائماً، وأن الفرنج أخذوا بأساليب الدفاع باستمرار، بل كان الأخذ بالهجوم وتفضيله على الدفاع، أو المزج بين الهجوم والدفاع مرتبطاً بكل مرحلة من مراحل الصراع، وبما يستجد فيه من العوامل.

لقد امتد مسرح الأعمال القتالية على امتداد الجبهات الاسلامية، بداية من أرض الأندلس ومروراً بأقطار المغرب العربي الإسلامي وجزائر البحر الأبيض المتوسط، ونهاية بأرض بلاد الشام. واستمر هذا الصراع طوال قرون متتالية. ولهذا فقد يكون من الصعب التعرض لكل ما تضمنته هذه الحرب الشاملة من وقائع وأعمال. وحتى ما جرى على أرض بلاد الشام هو أكثر اتساعاً من أن يشمله بحث. ولهذا كان لا بد من التوقف عند الأحداث الرئيسة، وتجاوز بعض الأحداث الثانوية. ونظراً لما كان للحصون والقلاع من دور في هذه الحرب الشاملة فقد ظهر أنه من المناسب التركيز على بعضها وليس كلها، وتجاوز ما كان دوره ثانوياً، أو ما كان متشابهاً، ولقد زالت أهمية القلاع والحصون بتطور الوسائط النارية، واستعيض عنها بالحفر عميقاً في باطن

الأرض ـ وهو ما يمثله خط بارليف والخنادق العميقة والواسعة في الجولان ـ. وبقي الحوار مستمراً بين أساليب الحرب الهجومية ووسائط الحرب الدفاعية. وبقيت عوامل الصراع وأساليب الحوار متشابهة. ومن هنا تظهر فائدة إفراد فصل خاص للقلاع والحصون في الحروب الصليبية القديمة.

لقد احتفظت تجربة الحملات الصليبية القديمة بأهميتها وفائدتها، لا من حيث استطالة أمدها ـ لمدة قرنين من عمر الزمن على أرض الشام وحدها ـ ولا من حيث اتساع مسرح عملياتها ـ الذي شمل ـ الأندلس والمغرب العربي ـ الإسلامي وبلاد الشام وأوروبا الشرقية وجزر البحر الأبيض المتوسط أيضاً. ولا من حيث اشتراك عدد كبير من الأقوام والشعوب على طرفي جبهات الصراع. وإنما أيضاً وبالاضافة إلى العوامل السابقة الاستمرارية في الصراع واتصال تلك التجربة بما يحدث اليوم، وإذا كان هناك من ينكر مثل هذا الاتصال، ويتجاهل مثل هذه الاستمرارية ـ عن ضعف وتخاذل، فإن الغرب ذاته لازال يعلنها بشكل أو بآخر، تلميحاً أحياناً وتصريحاً في أحيان أخرى على شكل هجوم سياسي أو اعلامي، ولعل ذلك هو العامل الأساسي في فشل كل حوار مع الغرب الصليبي المتعصب والمتعجرف. وليس الاصرار العنيد على تكرار مقولة: (بقاء اسرائيل واستمرارها وخلودها ـ على ما يزعمون) انما لاقناع العرب المسلمين خاصة والمسلمين عامة، بأن أصحاب المشروع الإسرائيلي ـ الصهيوني ـ قد أفادوا من تجاربهم المستمرة بحيث أنهم لن يكرروا جلاءهم عما احتلوه في حملتهم الجديدة. وقد رد تعالى ـ عزّ من قائل ـ على مقولتهم في محكم تنزيله:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ★ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ★ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ★ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾

صدق الله العظيم★.

بسام العسلي

★ الجزء السابع والعشرون ـ سورة القمر ـ الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.